على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل السادس

انقلاب مفاجئ

قضى غانم في منفاه نحو ثلاثة أشهر ، في معزّة وإكرام . وكان الجزّار قد قضى فريضة الحجّ ورجع . فأخذ يتابع مظاهر العطف نحو ممثل الأمير بشير ، فتارةً يدعوه الى ديوانه الخاصّ فيخلع عليه ، وطوراً يرسل اليه احد افراسه العتاق ، مع بعض افراد الحاشية ، فيسير صحبتهم الى ضواحي المدينة يروّح ما يلمّ بنفسه من الضجر والسآمة . ولم تكن اخبار البلاد لتنقطع عن غانم ، فكان يأتيه فرحات ، كلّ اسبوع ، بالتحارير من جدّه ، بخطّ معلّمه الشاعر نقولا ؛ ومن عنده المير جهجاه ، بخط بدور ، فيطلع على حالة كل شخص بمفرده . وكان يزداد سروره ، من وقت الى وقت ، اذ يأتيه تحرير خاصّ من بدور يطلعه ، بانشاء جمع بين السذاجة والإخلاص ، على الفراغ الذي احدثه غيابه في قصر بعذران ، ويشجّعه على تحمّل مضض البعاد ، واضعاً نصب عينيه بريقاً ساطعاً من الامل باللقاء القريب . اما اخبار الامير بشير ، وحوادث الجبل ، وموقف الاعداء في تلك الايام القلقة ، فكان يعرفها مفصّلةً من فرحات الذي كان يعرّج دائماً قبل ان يأتي عكا ، على معسكر الامير في بلاد المتن ، فيحمل الى غانم بجمل الحوادث الاخيرة مع سلام الامير ؛ فيطلع هذا الجزّار على ما يوافق

اطلاعه من ذلك . وكان مولى عكا كثيرًا ما يُظهر الارتياح لحالة الامير بشير امامَ غانم ، فيكتب هذا بالأمر الى اميره منشطاً على متابعة الأعمال.

على انه لم يمضِ شهر من السنة ١٧٩٤ ، حتى أحسَّ غانم ببعض الحذر يشوب علاقات الجزّار معه . وكانت اول دلائل هذا التطوّر برودة شعر بها اثناء المقابلة الاخيرة . ثم اصبح الجزّار يباعد بين المقابلات ، ويُقصر مدّتها ؛ وانتهى بان لمّح مرّة الى تأخر الأمير بارسال المال الباقي ، وبإيفاد الشيخ بشير جنبلاط يقيم مع غانم في حيفا.

فأسرع غانم وارسل يُخبر اميرَه بالأمر كي يكون على حذر من حادث مفاجئ لا يُستغرب ان يُقدم عليه الجزّار ، وهو المعروف بتقلُّب الأخلاق ، وفظاظة الطباع ، والملل السريع من معاونيه.

امّا الأمير بشير فأجاب غانمًا حالًا ، وذكر له ما يراه من اسباب هذا الانقلاب . وهو ان اختلافاً كان حصل بينه وبين السرعسكر ، قائد جيش الجزّار في صحبة الأمير . وكان اصل الخلاف طمع السرعسكر وشدّة نهمته الى المال . وكأنه ارسل فأخبر الجزّار بالخلاف على غير حقيقته ، فأوغر صدره . ثم تابع الأمير انهُ لا يهتمّ بهذا الحادث اذ لا يرى لهُ من تأثير شديد على الجزّار ، وقد ارضاه ويرضيه فوق الرضى ، فيقدّم لهُ كل ما يطلب

الّا ان غانمًا لم يكن ليشاطر الأمير بشير رأيه في عدم اهمية الحادث ، وهو على مقربة من الجزّار يرى جوّ السياسة يربدّ شيئاً فشيئاً ، والعاصفة تقترب سريعاً حتى لا يُظنّ كيف تنتهي دون دويّ وانفجار . كان ينتبه لكل حادثة تصدر في حاشية الجزّار ، ويرهف مسمعيه لدى كل إشاعة تتناقلها السنة الخدم من كبار وصغار ، ويجتهد في تفهم كل ايماءة يشير بها ارباب المناصب اليه او الى رفقائه من اللبنانيين ، ويشتغل في تأويل كل تلميح الى حالة الجبل وحالة اميره ، فلا يصل الى نتيجة مطمئنة ، ولا يشعر الّا بعاطفة الايجاس والخشية.

هذا وقد زاده شعورًا بحراجة الموقف انَّ فرحات تأخر عليه بالاخبار . وكان قد اوصاه بالعودة قبل مضيّ الاسبوع ، واقام ينتظره انتظار من لم يبقَ لهُ بالنجاح سوى امل ضعيف لا يكاد يتمسّك بهِ فيبني صروحاً من الاحلام

شاهقة ، حتى ينفخ عليها اليأس نفخته السامة القاطعة ، فتتخلخل ، وتتداعى ، وتهبط في اختلاط مُبهم . فيعود حاني الرأس ثقيل الدماغ ، ضيّق الصدر ، يفتش عن آثار صروحه ، حتى اذا جمع اشتاتها ، خلق منها شبه امل جديد ، مجتهداً في مغالبة شعوره بالفشل مغالطاً الحقائق المؤلمة . هذه حالة الإنسان امام الخطر المداهم الاكيد ، وهذه كانت حالة غانم في انتظاره لفرحات . ولكن فرحات لم يأتِ ...

مضى اليوم على ميعاد رجوعه ، فاليومان ، فالثلاثة . فودّع غانم كلّ امل ، وانفرد في حجرته منصرفاً الى سويدائه ، ساكناً الى تفكراته المحزنة . حتى جُنّ الليل فنبا به مضجعه ، وطردت الهموم النعاس من جفنيه . فقام الى نافذته يتأمل السماء الصافية في تلك الليلة القارسة ، واذا بالبدر يبدو جامداً كساحة واسعة من الجليد ، والغيوم تظهر لاصقة بأديم السماء لا نسيم ينوش اطرافها ولا ريح تجرّها في الفضاء اللانهائي . ثم هبط بصره الى ما حوله فاذا المدينة ساكتة ، جامدة ، مغمورة دون حراك ، بذاك النور الأزهر الضارب الى الصفرة الموحشة . واذا الاشجار الباسقة رافعة اغصانها العُرّاة ، وقد ماتت فيها مائية الحياة ، فقنطت من الرجوع الى الحياة . واذا بالمآذن الشاهقة منتصبة فوق القباب الساكنة لا صوت يُهيب من حناياها ، ولا نظر يخترق الفضاء من نوافذها ، بل هي مركوزة خاوية كأنها آثار عادية لقوم امرّ عليهم التلاشي يده فدخلوا في حيّز الفناء .

ووصل بصره الى قباب القلعة الشامخة ، الى قمم الأبراج المتينة ، فجال فيها واستقرّ على الركن الارسخ ، على الجناح الذي ينام فيه الجزّار . فراح يقابل ، عن غير قصد منه ، بين حالته القلقة ، وحالة الجزار الذي ينام مستريحاً مطمئناً ، خالي الشعور بما اقضّه ويقضّه من المضاجع ؛ بما حرّقه ويحرّقه من الأجفان ؛ بما اساله ويسيله من الدموع الحارّة ؛ بما أثيم من النساء وايتم من الاطفال . هو ايضاً يرقد جامداً ساكناً فيدخل في ظلّ الموت الذي يبسط جناحه كلّ مساء على المدينة .

مظاهر الجمود والسكون والموت ، بدت لغانم في صفحة السماء ، وعلى

سطح الأرض ، فأصابت من مخيلته موضعاً حساساً ؛ فقادته بعيداً عن الحر ، بعيداً عن التجدد ، بعيداً عن الأمل ، بعيداً عن الحياة ، فاستسلم الى عقارب القنوط الدابّة في قعر نفسه على مهل ، المسيّمة كل ميل الى الخلاص ، القاطعة كل امل بالنجاح . وهكذا ظلّ متنقّلاً ببطء وبرودة ، من مجاهل اليأس الى حقول الموت ... حتى انه لم يشعر بنفحات البرد القارس ، تجمّد مجاري الدم في اطرافه ؛ ولم يتنبه لمظهر من مظاهر الحياة في منطقة الموت الجامدة ؛ لم يتنبه لحركة بطيئة في ذاك السكون الثقيل المُرهف ، لم يتنبه لشبح ضئيل كان يبدو بطيئاً امام الجدران البيضاء ، ويزفّ سريعاً تحت القناطر المظلمة ، فتظهره المرتفعات متثاقلاً ، وتخفي المنحدرات خطواتـه المتتابعة ؛ حتى وصل تحت نافذة غانم . فالتفت متنحنحاً . ولم يكد يدرك الباب ، حتى فتحه الشاب وقد انطبعت على وجهه تأثيرات ما تُراحم في دماغه من عواطف الخشية والرغبة فلم يتمالك ان قال :

— فرحات ؟!...

وانطرح على المقعد لا يقوى على القاء السؤال خشيةً من سماع جوابه .

فاقترب منهُ فرحات . وبصوت يكاد يكون لهاثاً ، قال :

— الموقف في غاية الحَرَج . فقد ارسل الجزّار منذ خمسة ايام امراً الى الأمير والسرعسكر ان ينزلا بالجيش من المتن الى ساحل بيروت في الحال . وقد فهم الأمير معنى هذا الامر ، واحسّ بارادة الجزار ان يكون الجيش في الساحل حتى يمكنه ، اذا شاء ، القبض على الامير ورجاله وارسالهم بطريق البحر الى عكّا .

ففتح غانم عينين جامدتين ، بينما كان فرحات يستريح قليلاً . ثم تابع :

— فارسل الأمير حالاً الى المختارة الشيخ بشير جُنبلاط كي يخبّئ ما عند حزبه من السلاح في سرايتـه . وذهبت انا بصحبة فارس ناصيف الى دير القمر ، فاقمنا ليلة جمعنا فيها كل ما عند رجالنا من السيوف ، والرماح ، والبنادق ، والطبنجات ، والبلطات . وحفرنا ارض حارة فارس المذكور على طول القبو الاسفل فدفنّا في الحفرة كل ما جمعناه . ثم طمرناها وفرشنا البسط فوقها قبل الصباح .

فاذا حصل امرٌ ما وهلكت مع فارس ، فتذكّر محلّ السلاح: في منزل فارس ناصيف ، وهو آخر بناء في دير القمر لجهة الشرق ، اي تمامًا بلي بتدين ، في ارض القبو الأسفل.

ثم رجعنا وكان الامير قد سار بالجيش حسب الأمر . فالتقينا به في ظاهر بيروت وقد خيّم العسكر في حرج الصنوبر . فتركتهم هناك وأتيت لأتنسّم اخبار الجزار.

وما كاد فرحات ينهي حديثه حتى انطرح على الديوان ، وكان التعب قد اخذ منه كلّ مأخذ ، واثقل اجفانه النعاس ، فهوّم قليلًا ثم الوى يغطُّ غطيط الجمل.

امّا غانم فقضى ليلةً بيضاء ، يفكّر فيما عسى ان تؤول اليه هذه الحالة.

وعند السحر افاق فرحات ، فتناول قليلًا من الطعام مع غانم . ثم ودّعهُ قائلًا : اني سأعرّج على القلعة فاتجسّس اعمال الجزّار ، واتناول ما يُشاع عنهُ ، فاحمل ذلك الى الامير . وبعد ان ضرب لهُ موعدًا قريباً ، شدّ طاقاته ، وقفز سريعاً خفيفاً

* * *

كان ذاك الانقلاب السريع في اخلاق الجزّار ، وموقفه تجاه الأمير ، ناتجًا عن امرين : اوّلهما ، وهو السبب الحقيقي الباطن ، ما كان اولاد الامير يوسف يتابعونه من اساليب الدسّ والتسايق في بلاط عكّا بواسطة بعض ابناء الجزّار ، فيتّهمون الامير بشير بكل كبيرة ، ويرمونه بانه يهزأ بالجزّار ، ويتناسى ما وعده به من المال والرهائن ، ثم يعرضون على مولى عكّا الآلاف من الأكياس. فينيلهم الجزّار اذناً واعية ، بينما كان يرمي بطرفه موقف الامير بشير من اعدائه ، وحالة الحركات الحربية في الجبل ، حتى اذا لحظ بعض التأخر في سير العسكر اللبناني ، وتأكد ان ابناء الامير يوسف يدفعون لهُ «خدامة الفين كيس على ثلاث سنين» ، وعرف النفور الحاصل بين الامير بشير والسر عسكر ، تشبّث بهذا الحادث وجعل منه سبباً ظاهراً لنزع ثقته من الامير ، فأمره بالنزول مع الجيش الى الساحل.

وما لبث ان ارسل امرًا سريًا للعسكر بان يقبض حالًا على الامير بشير واخيه الامير حسن ، والشيخ بشير جنبلاط ، وفارس ناصيف . فاعتقلهم على غفلة ، وسار بهم جرًا الى عكا

امـا اولاد الامير يوسف فكانوا يترقبون الحوادث في جبيل ؛ حتى اذا عرفوا بالواقع جمعوا رجال حزبهم واستعدّوا للسفر منتظرين امر الجزّار الذي ما عتم ان وصل ، فانتقل الامير حسين والامير سعد الدين الى ساحل بيروت فاحتلّا مركز الامير . وما هو ان ارسل لهما الجزّار الخلع المعهودة حتى انقسما فسار الامير حسين ، برفقة مدبّره برجس باز ، الى دير القمر ؛ ورجع اخوه الامير سعد الدين ، برفقة فرنسيس باز ، الى جبيل .

ولم يكن من الصعب على الامير حسين ان يدخل دير القمر ، بعد ان وصل خبر اعتقال الامير ، وامر الجزّار بتولية خلفٍ لهُ . فتضعضع الحزب ، ولجأ ارباب الى المختارة وبعذران وجوارهما يجتمعون مع سائر الجنبلاطية ، فيتداولون في مصيرهم ، وموقفهم تجاه الحزب الحاكم . وقد كانوا لزموا السكون منتظرين ، لو لم يبدأ الامير حسين بالعداء . فيأخذ بظلم كل من كان يناله من افراد حزب الأمير . فيحجز الأرزاق ، ويبتزّ الاموال ، ويرمي الناس في السجن دون مسوّغ ، حتى ضجّ السكّان ، وارتفعت الاحتجاجات ، وهو لا يزيد الّا مضاء في طغيانه .

وكان المظلومون العديدون يلجأون ، في مصائبهم ، الى قصر الشربين ، فيشكون للشيخ بو غانم مآتي ذاك الأمير الجائر . وكان الشيخ لم يفارق قصره مع حزب الأمير ، لأنه لم يكن يقوَ على السفر ، فظلّ ينظر بطرف كئيب الى آماله تتلاشى ، وامانيه تتبدّد ، منتظرًا كل دقيقة عودة فرحات من عكّا ، فيخبره بحالة الامير وحالة حفيده غانم ؛ باذلًا كل ما عنده من اساليب البلاغة في تسكين خواطر المظلومين ، وتعزيتهم ، وارضائهم بالآمال والمواعيد ، مُغدقًا البلسم على قلوبهم الجريحة ، والسلام على خواطرهم الثائرة ، طالبًا منهم ان يصبروا ، مردّدًا على مسامعهم الآية الالهية : « من يصبر الى المنتهى يخلص »

(لها بقية)